الفصل الرابع

المراهقة الانسحابية المنطوية

(الشكل الثاني)

السمات العامة للمراهقة :

• المراهقة في هذا الشكل أسيفة مكتئبة تتسم بالانطواء ، والعزلة الشديدة ، والسلبية ، والتردد ، والخجل ، وكذلك بشعور المراهق الحاد بالنقص وعدم الملاءمة .

• ليس للمراهق مخارج ومجالات خارج نفسه ، عدا أنواع النشاط الانطوائي مثل قراءة الكتب الدينية وغيرها ، وكتابة المذكرات التي يدور أغلبها حول انفعالاته ونقده للصور التي تحيط به ، وبعض المراهقين كان له نشاط ديني كالوعظ .

• ينصرف القسط الأكبر من تفكير المراهق إلى نفسه ومشكلات حياته ، أو إلى التفكير الديني والتأمل في القيم الروحية والأخلاقية أو إلى نقد النظم الاجتماعية الوضعية ، والثورة على تربية الأبوين .

• ويتجه جانب هام من نشاط المراهق إلى محاولة النجاح الدراسي وإلى الاهتمامات الجدية .

• وتنتابه الهواجس الكثيرة وأحلام اليقظة التي تدور حول موضوعات حرمانه وحاجاته غير المشبعة ، من الملبس والمأكول إلى الجنس والمركز المرموق . . وتصل أحلام اليقظة في بعض الحالات حد الأوهام والخيالات المرضية وإلى مطابقة المراهق بين نفسه وبين أشخاص الروايات التي يقرؤها سيما المذنبين منهم .

• ويسرف المراهق كذلك في الاستمناء تخلصاً مما يشعر به من ضيق وكبت ، ونتيجة لعدم توجيه طاقته إلى مجالات عملية خارج نفسه كالرياضة أو النشاط الاجتماعي .

• ويتجه أيضاً إلى النزعة الدينية المسرفة والمثالية التي تقرب من التصوف ، بحثاً عن الراحة النفسية والخلاص من مشاعر الذنب . . ولكنه يعاني نتيجة هذا الاتجاه مزيداً من القلق والصراع وتضخيما للإحساس بالإثم نحو بعض الأخطاء التي يربأ بنفسه أن يشارك الآخرين فيها ، وبخاصة الاستمناء والتفكير الجنسي .

العوامل المؤثرة في المراهقة :

١ — تشترك هذه الحالات جميعا في عدم مناسبة الجو النفسي للمنزل وفي ضغط شخصية المراهق ضغطا عنيفا وإنكار المشرفين على تربيته لحاجاته ورغائبه المتطورة .

وقد كان هناك نموذجان سائدان لتربية الأسرة فى حالات هذا الشكل : — فأما النموذج الأول فهو النموذج الأوتوقراطى الذى يفرض سيطرة الأبوين وإرادتهما وقيمهما فى الحياة على المراهق . وقد استخدمت بعض الأسر العقاب البدنى والحرمان من المصروف والتشهير بالمراهق وتوبيخه كوسائل لقمعه وحمله على الانتظام مع قيم الوالدين وأهدافهما . وبعضها الآخر لم يلجأ إلى مثل هذه الوسائل ولكنه استمر فى معاملة المراهق على أنه طفل وأنكر عليه استقلال تصرفه ورفض كذلك الاعتراف بأصدقائه أو أساء استقبال هؤلاء الأصدقاء . . وقد تسببت هذه المعاملة فى تمرد المراهقين وثورتهم — الصريحة أو الضمنية — على الوالدين (أو من يحل محلهما فى إدارة الأسرة مثل الأخ الأكبر) وكان من وسائل الاحتجاج الضمنى الكذب والكتمان والاحتيال على تنفيذ الرغبات التى لا توافق عليها الأسرة . وغنى عن البيان أن ثقة المراهقين بالمهيمنين على تربيتهم فى هذه الأسر كانت ثقة ضعيفة ، متأثرة فى ذلك بسلسلة الخبرات الطويلة للمراهقين التى تمتد جذورها إلى طفولتهم المبكرة .

وأما فى النموذج الثانى فقد أغدق الوالدان العطف على المراهق فى طفولته وأسرفا فى إجابة طلباته حتى اعتمد عليهما اعتماداً مطلقا والتصق بهما التصاقا شديداً . . وكانت نتيجة هذه المعاملة لا تختلف عن نتيجة القسوة فى النموذج السابق ، فقد شعر المراهقون أيضاً بإنكار والديهم لشخصيتهم المستقلة ، فجاهدوا مع العناء الشديد فى التخلص من العلاقة

الطفلية التى تربطهم بالوالدين ، وانتهى الأمر ببعضهم إلى الثورة العارمة على والديهم والسخط على أنفسهم .

٢ — وكان لنوع ثقافة الأسرة الأثر الكبير فى الاتجاهات التى حاولت فرضها على المراهق . فقد كانت إحدى القيم الكبرى فى هذه الأسر النجاح الدراسى الذى دار حوله كثير من قلق الأسرة واهتمامها ، وبالتالى قلق المراهق أيضا . كما كانت نظرة الأسر إلى النواحى الرياضية نظرة التشكك والارتياب فى قيمتها ، والظن بأنها تخلق من المراهق شخصاً مشاكساً ، وعلى الأقل تعوقه عن التركيز على الدراسة . لذلك كان بعض هذه الأسر يعاقب المراهق على اتجاهه إلى الرياضة ويضع العوائق فى سبيل ذلك .

كذلك كانت غالبية هذه الأسر تغالى فى الاتجاهات المحافظة لدرجة التزمت والرجعية . فكان بعضها يحول بين المراهق — بمجرد بلوغه — وبين مخالطة السيدات والفتيات من أقارب الأسرة ، وكانت الأسرة تحاسب المراهق حساباً عسيراً على أدنى تهاون فى تأدية الطقوس والفرائض الدينية والمحافظة على قواعد السلوك الشكلى . وأدى ذلك إلى شدة حساسية المراهق وقسوة ضميره وتزمته فى حسابه لنفسه ، مما جعله يعانى الصراع الدائم والتوتر النفسى الحاد .

٣ — وبالإضافة إلى ما تقدم فقد كانت هناك مشكلات تتعلق بالوضع الخاص لبعض المراهقين وبترتيبهم بين الإخوة . وجدير بالإشارة أن هذا

الترتيب — أيا كان — لا يكون له نفس الوزن فى تأثيره على المراهق إذا وجدت المعاملة الحكيمة من جانب الوالدين والثقافة المناسبة للأسرة ، ولكنه فى حالات « الشكل الثانى » اقترن بجهل الوالدين وتوجيههما السيء ، مما ساعد على إبراز صعوبات الوضع الخاص للمراهق .

فهناك مثلا أصغر الإخوة الذى كان يقابل بضغط شخصيته ضغطاً فوق العادة من جانب الوالدين والإخوة ، بمعنى أنهم كانوا لا يعترفون بتطوره نحو الرجولة ويعاملونه معاملة لا تليق إلا بالطفل . وهناك أكبر الإخوة أيضا ، وهذا كان يواجه صعوبة أنه أول المراهقين فى الأسرة فلا يجد من يحذو حذوه فى مقابلة صعوبات المراهقة والتغيرات المفاجئة التى تصحب البلوغ ، كما أنه يمثل التجربة الأولى للوالدين فى التعامل مع المراهقة . وإلى جانب هذا فإن الوالدين ينتظران الشيء الكثير من ابنهما البكر ويسلطان عليه أمانيهما فى النجاح المدرسى وما شابه فيدفعانه إلى ذلك دفعاً ، وقد يقسوان عليه قسوة شديدة بعد تدليل وتعلق به فى الطفولة . وقد كان الوضع الخاص لواحد من المراهقين باعتباره الابن الأوحد بعد أربعة أبناء توفوا جميعاً من عوامل التوتر الشديد فى مراهقته ، فقد دلله أبواه تدليلا كبيراً وأبديا كثيراً من الجزع والقلق لجميع أحواله وخاصة أنه كان ضعيف البنية كثير الإصابة بالأمراض فى طفولته ، وترتب على هذا ارتباط المراهق بأبويه ارتباطاً طفلياً جعله يثور على أبويه وعلى نفسه عند إدراكه للآثار السيئة لهذا الارتباط . ومثل ذلك حدث أيضا مع مراهق

كان الذكر الوحيد بين أربع أخوات . كذلك كان الوضع الأسرى الخاص لمراهق آخر كانت تسبقه أختان تكبرانه كثيراً فى العمر ويليه إخوان يصغرانه كثيراً أيضاً — كان وضعه هذا من العوامل الأساسية فى عزلته وميله للوحدة ، حيث لم يستطع مصادقة أحد من إخوته وأخواته ، وزاد الطين بلة أنه باعتباره أكبر الذكور فى أسرة فقيرة توفى عائلها ، كان يشعر بثقل مسئولية الأسرة وبأنه « كبش الفداء » لأسرته ، مما أورثه الهم والقلق واليأس والإغراق فى السلبية . وكان لترتيب أحد المراهقين باعتباره ثامن الأبناء فى أسرة كبيرة الحجم أثره فى افتقاده الشعور بالأهمية والأمن والعطف الكافى .

٤ — وقد كان ضعف المستوى الاقتصادى والعوز المادى من العوامل الأكيدة التى تسببت فى صعوبة التكيف لعدد من الحالات ، حيث أدى الفقر إلى اعتزال المراهق الناس والأقران خشية أن يعرفوا عنه عوزه ، ولعدم استطاعته الظهور بالمظهر اللائق بينهم ومجاراتهم فى مصروفهم . كما كان المراهقون فى هذه الحالات شديدى الحساسية لتخلف المستوى الاقتصادي الاجتماعى لأسرهم ، مما أدى إلى إحساسات النقص الحادة وصعوبات التكيف . وبسبب العوز المادى وثقل الأعباء الأسرية تحول أحد المراهقين كما تقدم — إلى شخص منقبض ، يشعر بالاضطهاد ويستعذب الألم ويعتبرها نصيبه فى الحياة .

٥ — ولم يمارس هؤلاء المراهقون — باستثناء حالات قليلة — نشاطا رياضيا ما . وذلك إما لأن المراهق لم يتجه هذه الوجهة أو لأن ذلك لم يرق لأسرته (ففى إحدى الحالات أدى جزع الوالدين نحو ابنهما إلى منعه منذ الطفولة — من المشاركة فى حصص الألعاب فشب على تهيبه الرياضة بأنواعها . . وفى حالة أخرى كان المراهق يمنع من ممارسة الرياضة لاعتقاد أخيه الأكبر — وهو الذى سيطر على تربيته — بأن الرياضة نوع من العبث مما أدى إلى احتياله للاشتراك فى ناد للسباحة » .

٦ — ولقد نشىء أغلب هؤلاء المراهقين تنشئة دينية متزمتة فى المنزل والجمعيات الدينية ، كان من شأنها — إلى جانب الحرمان العاطفى وفقر النواحى العملية الاجتماعية فى حياتهم — أن استولت النزعة الدينية عليهم بصورة متطرفة ، فشغلوا بالتفكير الدينى والمجالات الدينية والتأمل فى القيم الروحية ، واتجه بعضهم إلى مايقارب التصوف والاتجاهات المثالية النظرية . وقد كان التدين بهذا سندا وجدانيا هاما وعنصرا منظما لحياة هؤلاء المراهقين لو لا أنه أدى فى الوقت نفسه إلى شدة محاسبتهم لأنفسهم وإلى وقوعهم فى صراع عنيف بسبب اصطدام مثاليتهم بالواقع الفعلى المحيط بهم ، وبسبب حدة إحساسهم بالاثم نحو الاستمناء خاصة (الذى لم يجدوا سبيلا إلى الخلاص منه) وما اعتقدوا أنه من المخالفات الدينية عموما . وقد انتهى الأمر بكثير من هؤلاء المراهقين — لانعدام التوجيه المناسب — إلى الشك والإلحاد والثورة على ما آمنوا به من قيم وعلى مثاليتهم السابقة وعلى أنفسهم

وكان بعض هؤلاء المراهقين يواجه صعوبة مضاعفة بسبب مباشرتهم النشاط الوعظ فى جمعيات دينية وما استتبع ذلك من تقيدهم بقيود خاصة فى سلوكهم ، أو بسبب اتجاههم إلى التعليم الدينى مما جعلهم يتصرفون حسبما يتوقعه الناس منهم ، ويضيقون بحرمانهم من الحرية التى يتمتع بها من تعلموا تعليما مدنيا من أقرانهم أو إخوتهم .

٧ — ولم يحقق كثير من هؤلاء المراهقين حتى النجاح الدراسى ؛ وذلك رغم كونه الاهتمام الأول للاسرة التى كانت تدفع المراهق إليه دفعا . وقد يكون ذلك نتيجة للعوامل الأخرى المتسببة فى توتر المراهقة ولكنه على أى حال قد أضاف سببا جديدا لهذا التوتر . وقد شعر المراهق فى بعض الحالات بتطفله الاقتصادى على الأسرة المترتب على تأخره الدراسى ، فكان يتعجل الوقت الذى يستطيع فيه الكسب ويتعجل النمو ويشعر بالقلق الحاد نتيجة لذلك .

٧ — وكان التخلف فى التكوين الجسمى أو الضعف البدنى وسوء الحالة الصحية من العوامل التى تزيد من توتر المراهقة فى حالات غير قليلة . ويشتد أثر هذا العامل إذا وجد من إخوة المراهق خاصة من تفوق عليه فى البناء الجسمى .

٩ — ولم تجد حاجة هؤلاء المراهقين إلى التقدير مجالا للاشباع فى أغلب الحالات سواء فى بيوتهم أو خارجها (وخاصة أن أغلبهم لم يكن له مجتمع خاص) كذلك لم يشبع هؤلاء المراهقون حاجتهم للمسئولية بالقدر الوافى

(باستثناء من وجهوا بمسئوليات عائلية ثقيلة) وقد حاول بعضهم التعويض عما افتقدوا من تقدير بطرق شتى كمصاحبة المراهق لمن هم أقل منه تعليما حتى يشعر بالتفوق عليهم ، وكمحاولاته فى الجدل أو الإصلاح الاجتماعى .

١٠ — وقد أحس المراهقون بالجدب العاطفى التام نتيجة الجو المنزلى وظروفهم الخاصة ، أو بسبب اعتزال الأصدقاء ، وحرمانهم كذلك من الأجواء المختلطة . وبلغ الحرمان العاطفى بأحدهم الحد الذى عرض فيه الزواج سرا على خادمته !

١١ — كذلك انعدم تقريبا التوجيه المناسب من أى جانب لهؤلاء المراهقين ، فلم يصادف معظمهم شخصا أثر عليهم تأثيرا إيجابيا فى مواجهة صعوبات المراهقة .

أمثلة من الحالات :

١ — هذه حالة مراهق نشأ فى أسرة متزمتة شديدة المحافظة ، متمسكة بحرفية التعاليم الدينية والطقوس الشكلية ، ومن ثم منعت المراهق من الجلوس مع ضيوف الأسرة من السيدات والآنسات ، ومنعته حتى من الذهاب للسينما . وهو يقول : « حدث أن ذهبت مرة إلى السينما مع أحد زملاء الدراسة وإذا بى أسمع بعد رجوعى أن (المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة) ثم أربط إلى عمود السرير لأنال عقابا شديدا نظير التأخر واللف فى الشوارع ، الذى لا يوجد من يأتيه فى الأسرة ، بل لا يوجد

من يتأخر خارج البيت إلى ما بعد الغروب ! . . » ويذكر المراهق أنه لم يقصد السينما بعد ذلك إلا فى أواخر المرحلة الجامعية . وكان لا يتأخر فى العودة للمنزل عن موعد الغروب ، وإذا خرج لم يبتعد عن المنزل كثيرا وكان يعرف أهله مقدما بوجهته .

وقد تعود المراهق — منذ صباه — على التردد صباح كل يوم على الكنيسة لأداء فريضة « التناول » . وكان امتناعه عن ذلك يقابل من أسرته بتوقيع العقاب البدنى الشديد عليه و « بإقامة الصلوات من أجله » ! وكان يسمع كثيرا من القائمين على تربيته — وهم والدته وإخوته الكبار الذين تعهدوه بعد وفاة والده — ترديدهم للآية التى تقول : « أدب ابنك بقضيب من حديد . . . » وقد انتهى به الأمر إلى تقبله الصامت للمعاملة الصارمة من إخوته (وخاصة أنه الأصغر فيهم) وإلى سلبيته التامة وافتراضه الألم وتوقعه . . ولم يمنعه هذا عن أن يراوده فى بعض الأحيان التفكير فى الهرب من المنزل ، ولكنه كان يراجع نفسه عندما يذكر أنه لم يحصل إلا على القليل من التعليم بينما يشغل إخوته مراكز اجتماعية مرموقة ، وأنه إذا ما عرّد فسوف يصبح — على حد قوله — خادما لهم !

ونظرا لافتقاد المراهق التقدير فى المنزل ، لجأ إلى بعض الأساليب التعويضية لتوكيد ذاته . ومن ذلك أنه اشترى ساعة ملفتة للنظر وضعها فى عروة سترته والمشهر بها بين التلاميذ والمدرسين .

وقد كان الأنيس الوحيد للمراهق هو الكتاب ، فكان يغلق حجرته

عليه ليستغرق فى المطالعة ، وكان أغلب ما يطالعه القصص الخيالية و « روايات الجيب » . . وأثرت صورة الانطواء على إغراقه فى النشاط الجنسى الذاتى (الاستمناء) وفى أحلام اليقظة . ثم اتجه المراهق إلى الوعظ فى الجمعيات الدينية ، مما زاد الأمر تعقيدا بالنسبة إليه ، فجعله يحاسب نفسه حسابا عسيرا على كل هفوة . وهو يقول فى ذلك : « أصبحت أنظر إلى نفسى نظرة صارمة باعتبارى مدرسا للدين ، عليه مسئولية خاصة ويجب أن يكون قدوة حسنة ومثلا أعلى . . وقد بحثت عن المثالية وفتشت عن جميع جوانبها حتى أرهقتنى . وكنت لا أسمح لنفسى حتى بالكذبة العابرة ، وكنت أضيق بنفسى حين تخطىء كبقية الناس . . . »

ثم جعل المراهق يحس إحساسا متزايدا بآثار صراع عنيف بين مثاليته النظرية المتطرفة من جانب ونوازعه ومشكلات الواقع من جانب آخر ، فآلى على نفسه أن يتخفف تدريجيا من غلواء اتجاهاته المثالية ، ولم يكن هذا بالأمر اليسير عليه فقد أقسم على خدمة الله ومثله العليا ، وخشى أن يتقول الناس بأنه لم يفلح فى الدين وأنه تحول كما يتحول الآخرون . . . على أن الأمر قد انتهى به فعلا — وخصوصا مع انعدام التوجيه المناسب — إلى الثورة الكاملة على نفسه وعلى مثاليته السابقة ، وإلى التشكك فيما آمن به من قيم ، والنظرة التى تميل إلى التشاؤم دائما ، وتوقع أسوأ الاحتمالات والظروف !

٢ — وهذه حالة مراهق من أهل الريف كان ضعيف البنية متواضعا

خجولا ، يقـــول عن نفسه : « إننى أشابه رجال الدين فى سماتهم ووداعتهم » — فاختار له أهله التعليم الدينى بينما اختاروا التعليم المدنى لأخيه الأصغر « لشقاوته وضراوة أخلاقه » ! . . ويصف المراهق تأثره بفكرة أسرته عنه فيقول : « ومن هنا انكمشت وقنعت بما يشبه الزهادة ، لأحقق أملهم فى ولأستحق أوصافى بجدارة . ورحت أبحث عن كل ما يجملنى فى نظر الأسرة والناس ويجملنى أبدو مؤدبا . فكنت أمشى على استحياء ، وأجلس منطويا صموتا ، ولا ألعب مع الصفوة من الرفاق إلا فى الظلام حيث لا يرانا أحد ، حرصا على سمعتنا الدينية ولقب (الشيخ) الذى ننادى به . . . » وكان المراهق يشعر بشىء من الحسد والنقص إزاء أخيه الأصغر ، فقد كان يفوقه فى البناء الجسمى ، وكان يلقب (بالأفنـــدى) ويستمتع بحرية واسعة فى التصرف والمغامرة ، الأمر الذى لم يكن للمراهق أن يجاريه فيه بحكم نظر الناس إلى أهل التعليم الدينى . فلما سكن الأخوان معاً بالمدينة لطلب العلم ، جعل المراهق يتحكم فى أخيه الأصغر ويفرض عليه رقابة صارمة عوض بها — على حد قوله — شعوره بالنقص من نحوه . وكان الأخ يفلت من هذه الرقابة إذا عاد للقرية فى العطلات المدرسية !

ولما كان المراهق الثامن بين الإخوة ، فقد زاد هذا من افتقاده الاعتبار والمكانة فى الأسرة وافتقاده العطف والأمن بالدرجة الكافية . . وعزز ضعفه البدنى وضآلة جسمه شعوره بالنقص الحاد ، فحاول التعويض عنه

بشتى الأساليب — من ذلك أنه عمد إلى مصاحبة المتخلفين عنه فى الدراسة حتى يشعر بالزهو والتفوق عليهم . وهو يقول : « كنت أتعجل الرجولة وأتمنى البطولة . . بل بحثت عن تعويض ضعفى البدنى بالاشتغال بكتب السحر والشعوذة . . » !

وقد عانى المراهق كثيراً من إسرافه فى الاستعفاء الذى اعتقد أنه هالك لا محالة بسببه ، فهرع إلى « التدين وإطالة التسابيح والسجود والإكثار من الصدقات والإحسان » بحثاً عن سبيل إلى الخلاص والتكفير عن الأخطاء .

على أن حياة المراهق لم تخل من بعض الاتجاهات التى هيأت شيئاً من الاتزان العاطفى ؛ من بينها أنه وهب له صوت جميل جعله يسعى إلى أماكن الطرب والتغنى بالشعر على الربابة ، ومن بينها الدراسة والمذاكرة « حيث كان التنافس بين الرفاق يحمى وطيسها » ، ومن بينها كذلك قراءته لكتب التصوف واشتراكه فى عدد من الأعمال الإصلاحية فى القرية ؛ فقد تحمس للدعوة لجمعية تعاونية ، ولجمع القمامة من المسجد ، وساعد الضعفاء فى حاجاتهم ، وأدار المضخة ليملأ الحوض الماشية حتى تشرب فى غيبة الناس . وهو يتحدث عن ذلك ثم يقول : « ولكن هذا كله أرهقنى ، كما أرهقنى التفلسف فى أصول الكون وخالقه وعالم الدين واستكناه المجهول . . . » .

٣ — وهذا مراهق ينتمى إلى أسرة فى المدينة ، توفى عائلها والمراهق

طفل فى السادسة . وهو الأوسط فى ترتيب الإخوة ، حيث تسبقه أختان تكبرانه كثيراً ويليه أخوان يصغرانه كثيراً . . ولما كان أكبر الصبية فقد صار مسئولا عن الأسرة بعد وفاة والده ولقد أحس — فى المراهقة — إحساساً متزايداً بثقل المهمة التى على عاتقه وبالاختلاف الكبير بين المستوى الاقتصادى لأسرته وأسر الزملاء والأقران ، فكان يفكر فى ذلك تفكيراً متصلا ، وكان إذا اشتد به الكرب يخرج هائماً فى الطرقات دون وجهة معينة . . تدور برأسه الهواجس والأفكار والخيالات القاتمة !

ولما كان فارق السن كبيراً بين المراهق وكل من إخوته وأخواته ، فقد تعذر عليه أن يصادق أحداً منهم واتجه إلى الوحدة والانعزال فى المنزل . وتأثر سلوكه خارج المنزل أيضاً بهذا الاتجاه ، كما كان إدراكه المتزايد لفقره وقسوة ظروفه مما دعم اتجاهه الانطوائى — فامتنع عن ثلة (شلة) الكرة التى كان أحد أفرادها وهو بعد تلميذ بالمدرسة الابتدائية ، وأحجم فى المدرسة الثانوية عن تكوين علاقات مع زملاء الفصل . . وحتى (الفسحة) كان يقتها لأنه لا يستطيع أن يشترى (البطاطا) أو (الساندوتش) شأن سائر الزملاء ! !

أثرت هذه الظروف على أخذ المراهق حياته مأخذ الجد وعلى تركيز اهتمامه على التفوق الدراسى . وقد نجح فعلا فى ذلك رغم ضوء (لمبة الجاز) وكان من المتفوقين فى الشهادة التوجيهية فالتحق بالجامعة بالمجان !

وقد وقع هذا المراهق فى أسر الاستهناء . . . واستبدت به أيضاً

أحلام اليقظة التى تأثر فيها بأبطال القصص التى قرأها ؛ فكان يتصور نفسه وقد أصبح من كبار الشخصيات ، وكان يطابق بين نفسه من ناحية والشهداء والضحايا من عظماء التاريخ من ناحية أخرى ؛ فيرى أنه أحد الذين وصفهم شكسبير بقوله : « إن الأخطاء التى ارتكبت فى حقهم أعظم من الأخطاء التى ارتكبوها » ! واستولى عليه إحساسه بأنه « كبش الفداء » لبناء أسرته ، فجعل همه أن يسعد إخوته وأن يجنبهم مثل مصيره وآلامه ! . . وقد وجد فى هذه الخواطر الحزينة المتشائمة نوعاً من الراحة ، فاستعذب الألم والتضحية . . . وباشتداد آلامه وقراءته لكتب الفلسفة والأدب فى دراسته بالجامعة ، أكثر من التشكك فى حكمة الحياة والغرض منها ، وأطال التأمل والتساؤل فى المسائل الدينية واللاهوتية .